البحث التربوى ٠٠ الى أين (*)

دكتور سعيد اسماعيل على

اذا كانت العملية التربوية قرينة الحياة ، حيث يمتد بها العمر امتداد حياة الانسان ، الا أنها (كموضوع) لتأمله وتفكيره ، قد تأخرت الى حد ما لترتبط بمدى ما احرزه العقل البشرى من نضج سمح له بالارتداد الى ذاته : فاحصا لنفسه ، مختبرا مدى قدرته على عمق التحليل ، وأحاطة التفكير وشمول النظر ٠ وبمعنى آخر فان التربية (كموضوع) للدراسة ، اقترنت فى نشأتها بنشأة التفكير الفلسفى ٠

وفى مصرنا الحديثة ، فان (التحديث) ، اذا كان قد تناول (التعليم) تنظيما وموضوعا منذ أوائل القرن التاسع عشر ، الا أن عملية (التربية) ظلت تجرى على أيدى الناس سواء داخل جهاز التعليم أو خارجه على نفس النهج الذى كانت تجرى عليه عملية (التطبيب) لدى الجمهرة الكبرى من عامة الأمة وجماهيرها ، وممثل هذه العملية الشهير هو (حلاق الصحة) أى أن عملية (التربيب) لم تكن الا ثمرة نهج (الخبرة) القائم على الذاتية والتعميم غير المنضبط ، والمنطق الذى قد يستقيم حينا وقد يعوج كثيرا ٠

من أجل هذا مرت أعوام وسنون ، بل قل عقود كادت أن تقرب من اكمال قرن من الزمان ، والقوم يعلمون مكتفين بمجرد العلم بما يعلمون دون أن يقلقهم الجهل بكيفية تعليم هذا الذى يعلمون ٠٠ حتى برزت أول مدرسة للمعلمين فى عالمنا العربى باطلاق ، نتيجة تقرير قوميسيون المعارف ١٨٨٠ يخطىء اذ يظن أن أعصار الامبريالية على يد البريطانيين الذى هب بعد ذلك بعامين قد عوق هذه المسيرة ، فأنا ازعم أن هذا الاعصار مستديم على هذا البلد ٠٠ بدأ قبل عام ١٨٨٢ ، وأزعم أنه لم ينته حتى هذه اللحظات ٠٠ كل

(*) كلمة ألقيت فى حفل افتتاح مؤتمر البحث التربوى : الواقع والمستقبل ، الذى عقدته رابطة التربية الحديثة بالاشتراك مع المركز القومى للبحوث التربوية فى القاهرة فى الفترة من ٢ ــ ٤ يولية ١٩٨٨ ٠

ما هنالك انه قد يجيء على يد قوم مرة ، وعلى يد قوم آخرين مرة أخرى ٠٠ قد يكون صريحا فى فترة ، متخفيا فى فترة أخرى ٠٠ عسكرى المظهر مرة ، غير عسكرى فى مرة أخرى !!

وهكذا ٠٠ عندما بدأ القوم يدركون على استحياء ضرورة العلم بكيفية تعليم ما نعلم ، بالاضافة الى العلم به ، بدأت (التربية) (كموضوع) للدرس والتفكير تأخذ شكلا لا نستطيع أن نزعم أنه شكل واضح القسمات ، محدد السمات ، ذلك لأن هذا الدرس ، وذاك التفكير ، ظل نهجهما (لمدة) فكر هنا و (سبحة) خيال هناك ٠٠

حتى اذا بدأت معاهد التربية تنهج نهج العلم فى خطوة ، وتتوسل بوسائل وطرائق بحثه ، شهدت التربية مرحلة ثالثة جديدة عليا :

كانت الخطوة الأولى : عندما انحصرت فى نطاق الخبرة الحياتية الساذجة ٠٠

وكانت الخطوة الثانية : عندما أصبحت موضوع تفكير يقـــوم على التأمل ومجرد النظر العقلى المجرد ٠٠

أما فى هذه المرحلة ، فقد أصبحت تعتمد على البحث العلمى ، فوضعت اقدامها على طريق أن تكون علما ٠٠

أن هذا المد الواضح للبحث العلمى أسلوبا للتعامل مع الأمور يكتسب فى مجال التعليم أهمية خاصة بالنسبة لصناعة القرار ، ففى كثير من المجالات يؤدى الخطأ فى القرار الى اضرار لا شك فيها ، تتباين حدة واتساعا باختلاف مجالات الحياة ، لكننا نؤكد أن الخطأ فى قرار يتصل ببناء البشر ، يفوق فى الخطورة أى مجال آخر ،

ومن هنا أصبح نهج العصر أن يسبق القرار عمليات متعددة من البحث والفحص والدرس ، التى يجب أن تأخذ حقها من الزمن ومن اتساع رقعة الناقش بحيث لا تجيء القرارات كطلقات رصاص فى ليل بهيم يسمعها الناس بغتة ، ولا يكون لهم بعد اطلاقها من سبيل ٠٠

كان الماضى ، عصر الاباطرة ، القرار هو الخطوة الاولى : يصدر أولا ، ثم تتبعه الاراء والمناقشات والدراسات بحيث تقف وظيفتها عند حـــدود التحسين والتبرير والتقريظ ..

وفى عصرنا الراهن ، عصر الجماهير ، ترنو الابصار الى أن يكون القرار هو الخطوة الاخيرة ، حيث تسبقه الدراسات والمناقشات والاراء بحيث تكون وظيفتها التشخيص والكشف والتحليل والاستشراف .. لم يعد العصر عصر عنتريات تنهج نهج المباغتة بهدف أحراز النصر وبناء مجد شخصى ، وانما هو عصر عقول تتحاور وأفكار تتبادل بعلمية ومنهجية بهدف بناء مجد الأمة ..

معذرة .. صحيح أننى لست فى موقع يسمح لى بأن أوجه وأشير ، فلست بصاحب سلطان ..

وصحيح أننى لست أكثر من رجل يقف على رصيف الشارع التربوى ..

ولكن ما يفوق هذا وذاك صحة ، أننى (انسان) له الحق فى ان يفكر ويأمل ويحلم !! واذا كان البحث أداة الانسان فى استكناه أسرار الكون الذى يحيا فيه ، فان الأداة تحتاج الى دليل يرشدها سواء السبيل ..

وان الباحث اذ يحمل بين يديه هذه الاداة العلمية أو تلك ، انما هو كالسائر فى الطريق : لابد له من خريطة تحدد له الاتجاه وترسم له مسالك الطـريق ..

من أجل ذلك ، فان البحث العلمى وحده لا يكفى لاستنهاض الأمة ما لم تملك هذه الأمة خريطة حضارية تحدد مواقعها وخطوات سيرها ..

واذا كانت بعض المواثيق الرسمية تشير بعجالة الى أن هذه الأمةعربية اسلامية ، فان الأمر لا ينبغى له أن يكون مجرد حلية تزين بها الكمات والخطب والتقارير ، وانما من الضرورى أن يتحول الى خلايا حية فى نسيج الجسم الاجتماعى ، وعقل الأمة وثقافتها .

فاذا أردنا مثالا بسيطا لهذا الذى نقول بالنسبة لموضوع مؤتمرنا ، فسوف نجد من المقومات مايمكن أنيعين الباحثفى الالتزام بالمنهج العلمى..

فالتفكير الصحيح لابد أن يقوم على الربط العلى بين الاسباب والنتائج، ومن هنا فعندما قال قوم ابراهيم عليه السلام أنهم يعبدون الاصنام ، كان الرد الالهى : « هل يسمعونكم اذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون » ٠

والدليل ، والحجة أو البرهان شرط أساسى لقبول الفكرة والرأى « تلك أمانيهم ، قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » ٠

والنظر بمعنى السعى بالمعرفة والبحث فى استكناه أمور الكون مأمور به : « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » ٠

والمعرفة شرط لقيام الحوار والنقاش « فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم » ٠

وحواس الانسان أدوات معرفة وفهم أن لم تستخدم هبط الانسان الى ما هو أدنى من مرتبة الحيوان : « لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالانعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » ٠

والاتباع بغير دليل ، تقليد مذموم يستحق السخرية : « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنال الله ، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أولو كان آباءهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » ٠

و (الاستنباط) نهج مطلوب مشروط بالاستناد الى مصادر الحق والعلم : « ولو ردوه الى الرسول والى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » ٠

٠٠ الى غير ذلك من جوانب تنوء بها هذه الدقائق التى ما ينبغى لى أن اتجاوزها ٠٠

واذا كان العلماء يعتمدون على ما توفر لهم من طرائق العلم وأدواته كى يمضوا فى بحوثهم مرتادين الآفاق دراسة وكشفا ، الا أن النهج الفلسفى يأبى عليهم أن يسيروا الى ما شاء الحال بهم ، وانما يوجب علينا أن نتوقف

بين حين وآخر لاخضاع هذه الطرائق والادوات نفسها للفحص والاختبار ، حتى يمضى العلماء بعد ذلك فى طريقهم بقلوب مطمئنة وعقول مستيقنة ، أن خطوهم سليم ، وان أفقهم يتسع لأحلامهم ..

من هنا كان حرص (رابطة التربية الحديثة) فى مؤتمرها لهذا العام ، ان تستنفر عددا من الاساتذة والباحثين والخبراء والمفكرين ، كى يتوفروا على أداة العلم التربوى ، الا وهى « البحث » ، كشفا عما قد يكون قد شابها من خلل وقصور ، وتأكدا مما تقوم عليه من أسس ، وتعرية لما يواجهها من مشكلات ، واستشرافا لما تسير اليه من مستقبل ..

والبحوث والدراسات التى عرضت فى هذا المؤتمر ، انما هى حصيلة هذا (الاستنفار) ..

ولا نستطيع أن نزعم أنها قد أحاطت بالموضوع من جميع جوانبه ، اذ ما زالت هناك جوانب أخرى بحاجة الى بحوث أخرى ، بل هنـــاك من القضايا التى تناولتها بعض الدراسات المقدمة بحاجة الى مزيد من البحث والتفكير ..

أنها خطوة على الطريق ، تكمل ما سبقها ، وتمهد لما سيليها ..